من حديث الفدائيين

نشأ إبراهيم (وليس هذا اسمه فقد نسيته) نشأ في بيت من البيوت الضيقة الخانقة بزقاق من أزقة طنطا المهملة، وكان أبوه قد نزح من قريتنا إلى عاصمة الغربية ابتغاء للرزق، فعمل حاجبًا في إحدى المحاكم الشرعية ردَحًا من الزمن ثم انتقل أخيرًا إلى القاهرة. وكان قد تزوج منذ تيسر له العيش امرأة فقيرة من أسرة كريمة فولدت له على الفراش الخشن ثلاثة بنين وثلاث بنات أكبرهم جميعًا إبراهيم.

من نكد الدنيا على هذه العائلة الكبيرة الفقيرة أن غلبت على عائلها الوحيد نزوات النفس وشهوات البطن فكان ينفق أكثر مرتبه على هواه وعجز بالطبع عن تعليم أولاده فوقف بهم وبهن عند المرحلة الإلزامية، ثم نفض يديه من أمورهم وألقى أزمتهم إلى أيدي المقادير ! وفتر عليهم في النقد فذاقوا مرارة الجوع وشكوا رثاثة اللباس.

وجاشت الهموم في صدر الأم وساورها القلق على حاضر بيتها ومستقبل بنيها. وكان إبراهيم قد جاوز حد الصغر فأجرته صبيا في مطعم قريب فكان يعود إليها أول الليل ببعض القروش وبعض الطعام فينفرج عن العائلة بعض الضيق.

وتدفق الأب في لهوه واستهتر في غيه حتى كان يبيت أكثر الليالي في غير بيته ! ووجد إبراهيم نفسه رب البيت وعائل الأسرة فأرهف ذلك من نشاطه وضاعف من سعيه، فزاول أشق الأعمال وتوخي أقرب المكاسب حتى أسبل الستر على فقر إخوته، وأدخل الطمأنينة على قلب أمه.

وكان إبراهيم منذ ترعرع يتبع المظاهرات الوطنية في طنطا فيهتف للوطن، ويشتبك مع الشرطة؛ ويبيت أحيانا على الأسفلت بالقسم، وكلما لقي العنت من جنود الشرطة ورأى الشطط من رجال السياسة امتلأ صدره بالسخط وفار مده بالحماسة.

اضطرب حينا مع الوقد، وجاهد حينا مع (الإخوان)؛ ثم كفر بهؤلاء وهؤلاء لاختلاف وجهتهم مع الوطن وتعارض غايتهم مع الدين، وانصرف إلى السعي على أهله، حتى جد الجد وأغار العدو على القناة ودعا داعي الوطن إلى الفداء، فقامت

بنفسه رغبة شديدة في التطوع للجهاد والتبرع بالروح. فقالت له أمه ودموعها تتقاطر على وجهها الشاحب: -

إلى من تتركنا يا إبراهيم وأبوك قد أنكر أولاده وهجر بيته؟

- إلى الله يا أماه ! ولا أشك في أن أبي سيؤويكم إلى جناحه بعد رحيلي. فإن الضمير مهما تخدره المعصية سيصحو. وإن الدم مهما تعكره القسوة سيروق، والله الذي خلق لنا الأشداق، قد ضمن لها الأرزاق. ومصر أمي وأمك، فإذا دعت فهي أولى بأن تجاب. وسأجيب دعاءها يا أماه، وسأعود إن شاء الله إليها بالنصر وإليك بالفخر !.

وعجز نجيب الأم ونشيج البنات وتوسل الجيران عن صرف الفدائي عن وجهته وقطعه عن عزمه، فانتظم إبراهيم في كتائب الموت وانقطع خبره عن أهله.

وأبلى الفتى على القناة ثم على الحدود البلاء الحسن مع رفاقه الذين نذروا دماءهم لله، فأقضوا بالرعب مضاجع الإنجليز، وفزعوا بالهول مواطن اليهود، وفعلوا بالجيوش المدربة والأسلحة الفتاكة ما تفعله العاصفة الهوجاء بالشجر القينان الغض !.

وفي إحدى الغارات الغادرات التي لا تحسن غيرها إسرائيل استشهد إبراهيم هو ونفر من رفاقه، فرفرفت فوق أجسادهم الأعلام، واحتشدت لتحيتهم الكتائب، وسارت في جنازتهم الأمة، وأبنهم على المقبرة المعطرة عبد الناصر، وأطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع، ودفعت القيادة إلى أسرة كل شهيد مائتي جنيه نفقة على مأتمه.

وكان أبو إبراهيم لهذا المال بالمرصاد فدسه في جيبه، وأوهم زوجته وبنيه أنه هو الذي أنفق ! وترامي إلى الأم بعد أيام ما أخذ الأب فشكت إلى قيادة قوة الحرس الوطني أمرها، وقصت على القائد خبرها من يوم فارقها الزوج الهاجر إلى يوم فارقها الابن الشهيد.

فمحا القائد عنوان الوالد وأثبت عنوان الوالدة، وأرسل إليها على هذا العنوان التعويض السخي الذي ضمن لها ولبنيها العيش الشريف مدى الحياة.

ورأى الزوج أن الخير كله قد أصبح في يد زوجته فعاد إليها ذليل النفس خاضع الإرادة فالتأم الشمل وصلح الأمر واتسعت الدار.

وهكذا كان موت الفدائي حياة لأمته وسعادة لأسرته !.